الغناء العربي

ماضيهِ وحاضرهُ

كان الناس من قديم الزمان كما هم الآن مختلفين بعضهم عن بعض في كثير من الاخلاق والعوائد والاذواق والمشارب ولكنهم مع هذا الاختلاف كلهِ اتفقوا في كل زمان ومكان على التعبير عن عواطف نفوسهم واميال قلوبهم بكلام يكيفون فيهِ اصواتهم ويوقعونها على صور تختلف في الارتفاع والانخفاض والطول والقصر وتتفاوت في الاحكام والاتقان تفاوت اصحابها في درجات الحضارة والعمران ويختلف وقعها في المسامع اختلاف المؤثرات الباعثة عليها والداعية اليها فترفع النفس الى سماء الطهارة والقداسة وتبث فيها روح التبتل والتعبد والزهد والقنوت او تشوقها الى الاستبسال في حومة النزال فتموت لتحيا وتأبى ان تحيا لتموت او تهزها الى الطرب فتنشط اليهِ من عقال الغموم والاتراح وتصيح نشوى المسرات والافراح او تهيج بها لواعج الحزن والجوى فتوغل في النوح والبكاء وتجود ان بخل الدمع بالدماء . او تفعل بها فعل المخدر بالاجسام وتجرّدها عن مطلق الافكار والاهتمام

هذا هو فن الموسيقى (او الغناء او صناعة توقيع الالحان) احد الفنون الجميلة وهو طبيعي في البشر فكل انسان موسيقيٌّ بالقوة وقلما ترى شخصاً من الطفل الصغير الى الشيخ الكبير الاّ وتجدهُ منصرفاً في خلوتهِ وانفرادهِ الى الترنم بما يلذ لسمعهِ وترتاح اليهِ نفسهُ . واذا كان الغناء عاماً بين جميع الطيور ولعلهُ كذلك بين الحيوانات ايضاً فالانسان العاقل اولى بان يكون مطبوعاً على الاخذ بهِ والميل اليهِ . ولا حاجة بعد هذا التمهيد الى بيان ما في النفوس من الارتياح الى سماع الغناء ولو اذن المقام لاشرنا الى بعض ما لاحظهُ علماء الحيوان من تأثير الغناء والايقاع في نفوس الحيوانات الاليفة والآبدة . وفي هذا فقط كفاية للتنويه بعلوّ شأن هذه الصناعة وعظم اهميتها وشدة حاجة الناس اليها

وكان اعيان الفرس القدماء يحترمونها ويترفعون عن العناية بها فانحصرت في فريق من القوم واقتصر استعمالها على الخدمة الدينيَّة وكان تعليم ابنائهم مقصوراً على ما يشرب قلوبهم حماسة وبسالة ويكسب اجسادهم قوة ونشاطاً كالرماية والطعان والصيد والفروسيَّة والرياضة البدنيَّة وقول الصدق لانهُ اول فضيلة عندهم والالمام بشيء من خواص العقاقير والنباتات لمداواة جراحهم وامراضهم . ففاقوا الاقران في بسالة القلوب وقوة الابدان لكن معظمهم فقدوا عواطف الشفقة والرفق والحنان وسلامة الذوق وحسن التناول اما اليونان فكانوا يروضون

صبيانهم بهذه المذكورات كلها لكنهم لم يقتصروا عليها كالفرس بل كانوا يخرّجونهم ايضاً في صناعة الموسيقى وكان الشاب اليوناني يظل مزدرًى به ومعرّضاً عنهُ حتى يتهذب فوق ذلك كلهِ بالقدوة الجيدة وتصقل طباعهُ بمصقل علم الايقاع

ويظهر ان قدماء الفرس غيروا حكمهم في الموسيقى بعد ذلك فاحلّوها محلها من الاعتبار والاهتمام وجاروا المصريين والعبرانيين واليونان في العناية بها والاقبال عليها حتى انها لما ظهرت في العرب كان المأخوذ منها عن الفرس اكثر من المنقول عن اليونان ومن ادلة ذلك تسمية اكثر الالحان العربيّة الى الآن باسماء فارسيّة كالياكاه والراست والدوكاه والجهاركاه وغيرها

ومن يراجع تواريخ العرب يجد ان الغناء عندهم كان قبل نقلهِ عن الفرس واليونان مأخوذاً عن الأذان وكان اول ظهورهِ بينهم محصوراً في افرادٍ من الرجال والنساء كابن سريج وابن محرز وعزة الميلاء ورائقة وطويس وحنين وبلغ غاية من الاتقان في عهد الرشيد والبرامكة حين ظهر ابرهيم الموصلي وابنهُ اسحق فجلّيا في مضمارهِ وكانا غاية في احكام الايقاع واجادة الغناء

وكثر على توالي الايام سواد المشتغلين بهذه الصناعة الجميلة وزاد عدد الضاربين على العود والقانون والعازفين في الناي والناقرين على الدف وعمرت مجالس الخلفاء والملوك والامراء والاغنياء بالمغنين وكان كثيرون منهم كابرهيم الموصلي وابنهِ اسحق من اهل الادب ورجال الشعر فكانوا يتغنون بما ينظمونهُ من القصائد والمقاطيع والتدود والموشحات او ينتقون احاسنها من كتب الادب ودواوين الشعر . وفي السفينة لشهاب الدين الموصلي وديوان الشيخ امين الجندي ما يزيدك يأساً عن غنى اللغة العربيّة بالتدود والموشحات وكل ما يصح ان يغنى في اكرم المجالس واشرف الاندية لانهُ جامع بين فصاحة التراكيب وبلاغة الاساليب ورقة الغزل والنسيب ونزاهة اللفظ عن كل معنى معيب

ولما عزت دولة العرب في الاندلس والمغرب وعمرت مجالس ملوكها وامرائها بالشعراء استحدث المتأخرون منهم فنّاً من الشعر سمّوهُ الموشح وتفننوا فيهِ ما شاؤوا وابدعوا ما ارادوا وجميعهم أحسنوا وأجادوا وكان اكثر منظومهم للغناء والتوقيع كقول احدهم

"كحل الدجى يجري . من مقلة الفجر . على الصباح . ومعصم النهر . في حلل خضر . من البطاح"

وكقول ابن سنا الملك المصري :

"يا حبيبي ارفع حجاب النور : تنظر المسك على الكافور : في جلنار : كالي يا سحب تيجان الربى : بالحلي : واجعلي سوارها منعطف الجدول"

ولما شاع فنّ التوشيح وأقبل الناس عليهِ لسلاستهِ وتنميق كلامهِ نسج العامة في جميع الامصار

العربيَّة على منوالهِ واهملوا الاعراب والتزموا النظم على مناحٍ مختلفة ووجوهٍ متعددة فكان منها الزجل والمواليا والقوما والدوبيت وكان وكان وغير ذلك مما يعرف في هذه الايام بالادوار والطقاطيق وكان عامة بغداد اسبق الناس اليها فتبعهم فيها اهل مصر القاهرة فبلغوا غاية الاجادة والاتقان

وظل مغنو سورية والعراق الى اواسط القرن الماضي حفاظاً للغناء العربي وقوّامًا على الحانهِ ونغماتهِ واهل مصر والمغرب يتخذونهم ويأخذون إخذهم في التلحين والتوقيع وجميع ما يتعلق بفن الغناء . ثم نحا المصريون في غنائهم منحى ابرهيم بن المهدي وجماعتهِ في عهد هرون الرشيد فنزعوا فيهِ منزعًا جديدًا وخالفوا السوريين والعراقيين الذين ظلوا الى عهد قريب آخذين مأخذ اسحق النديم وجماعتهِ في التعصب للغناء القديم على ان المصريين استظهروا عليهم في ميدان السباق واذاعوا اسلوب غنائهم في اطراف سورية والعراق

وفي هذه الايام تناقص عدد المغنين العالمين حق العلم باصول الغناء العربي وفروعهِ وفرَّط الكثيرون منهم في حفظ القصائد الجميلة والمقاطيع الرشيقة والموشحات اللطيفة المنتقاة من دواوين الشعراء المجيدين واقتصر بعضهم من ذلك على ما تعاف الآذان سماع الفاظهِ وتبذأ النفوس المهذبة معانيهُ فانحطَّت منزلة الغناء العربي في عيون كثيرين من شبان هذا العصر واصبحوا ينظرون اليهِ والى المشتغلين بهِ بعين الازدراء والاحتقار

على ان كل الشبان تقريبًا لا يرون لهم متدوحة عن سماع الغناء في بعض اوقات الفراغ وليس من العدل عذلهم لان المرء مطبوع على ذلك والموسيقى خير غذاء للنفس في مطلق احوالها وقد اشرنا الى فائدتهِ في صدر هذه المقالة فلا حاجة الى المراجعة ولعل كل انسان تقريبًا يستحسن جواب ابي عبيدة لعمر بن الخطاب حين وجدهُ يتغنى وسألهُ ما هذا فاجاب منشدًا :

" ولله مني جانب لا اضيعهُ وللهو مني والخلاعة جانب "

وبناء على شدة ميلهم الى سماعهِ تراهم فريقين فريقًا يقصد الاماكن حيث الغناء الافرنجي فيألفهُ ولا يبقى فيهِ اقل ميل الى سماع الغناء العربي وفريقًا يذهب الى حيث تعرض بضاعة الخلاعة باسم الغناء العربي فيغرى بها وينساق الى ما لا تحمد عواقبهُ

وليس هذا وحدهُ مبعث الاسف ومدعاة الحزن والكدر بل ان هنالك سببًا آخر لا يقل عنهُ شأنًا واعتبارًا وهو بلوغ فن الغناء الجميل هذا المبلغ من الضعة والانحطاط . نعم نأسف اشدَّ الاسف ان نرى ما خلفهُ لنا السلف منذ بضعة عشر قرنًا مشرفًا على الزوال وصائرًا الى الملاشاة والاضمحلال والتاريخ يرنُّ بموسيقى اسلافنا التي سارت بشهرتها الركبان وكادت تحوز السبق على موسيقى اليونان

اسعد داغر